القيم عند جون ديوى

د بلحنافي جوهر

أستاذة محاضرة، قسم الفلسفة،حامعة معسكر

احتلت القيم مكانا واسعا في مذهب جون ديوي الوسيلي أو ما يسمى بنظرية البحث أو "النزعة الطبيعية الإنسانية"، فالأخلاق والخيرية تتخذ عنده طابعا شموليا،فلا فرق عنده بين خير الفكر، وخير السلوك، ذلك أنه لا فرق عنده بين النظر والعمل، لأن الفاعلية الإنسانية هي وحدة لا تتجزأ، فهي نفسها في كل تجربة أو موقف.

نزعة ديوي الطبيعة الأخلاقية

استبعد ديوي القول بثنائية "بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون "فالأخلاق عند ديوي أخلاق طبيعية ،لأنها ترى ما ينبغي أن يكون يرتد دائما إلى ما هو كائن، فالقيم تنكشف من التجربة، إن الدينامكية الباطنية فينا هي دافعنا للعمل، ولا توجد الغايات الأخلاقية إلا حينما يكون هناك عمل، وطالما أن هناك حاجة للعمل فهناك شرور، وبالتالي فان الخير الذي يتطلبه الموقف لابد أن يتخذ صورة نسق أخلاقي يكون علينا الاهتداء إليه في ضوء العيوب الحالية، ذلك أن الأخلاق بحث عن نظام واتساق، وتوازن تحل محل الفوضى وعدم التوازن. فالبحث الأخلاقي يكون شرطا للتقدم الإنساني يسعى إلى تحقيق التوافق مع المجتمع الذي يعيش فيه.

فالقيمة عنده هي فاعلية إنسانية مركبة تضم الغاية والوسيلة في تأليف واحد، فمن فلسفته العملية حاول إعادة بناء الأخلاق، ونظرية المعرفة على أساس نزعته التجريبية الطبيعية،فكل أحكام القيمة والأخلاق لابد أن توضع على قاعدة من العلم، فالفلسفة كما يرها ديوى لا تقتصر على دراسة علمية للوقائع فقط، وإنما ترمي إلى خلق القيم، وإيجاد المثل والقواعد والمعايير الأخلاقية لتكيف مع وقائع البيئة الاجتماعية.

الأخلاق والبيئة الاجتماعية

يعرض جون ديوي موقفه الأخلاقي من خلال تحليل السلوك الإنساني بحيث يرى أن السلوك الإنساني هو تفاعل بين الإنسان والبيئة. وبين ما هو طبيعي، وما هو اجتماعي فهناك قوى داخل الإنسان وقوى خارجية عنه، والخير هو في تلاؤم البصير بين الاثنين، وعن طريق الروية التي تساعد في توجيه السلوك، وقد اعتبر السلوك الأخلاقي ناتج "عن نظر في الحاضر للبحث بأحسن الطرق التي يسلكها المرء في تكيف مع الوقائع. وهذا النظر في الحاضر يؤدي بلا ريب إلى نتائج في المستقبل.[1]

ورأى أن القيمة الأخلاقية تتمثل في المباهج التي تنتج عن الفعل الواعي ورفض القول بالخير المطلق أو الشر المطلق.فالأخلاق عنده ليست موضوعا منعزلا عن البيئة، فهي مواقف تتحقق من خلال أعمال الإنسان طالما أنها غير منعزلة عن مجتمعه، فالأخلاق ظاهرة اجتماعية. وبالتالي تعود إلى التربية حيث يقول ديوي"إذا كانت موازين الأخلاق منحطة فذلك ناشئ من نقص التربية التي يتلقاها الفرد في تفاعله مع بيئته الاجتماعية"[2].

وقيم الأخلاقية إنما تنشأ نتيجة المواقف التي يقفها الفرد إزاء المشاكل التي تعترضه وفي نشاطه هذا "فهو يستهدف المستقبل فيهتم بنتائج موافقة التي تغير أوضاع الأشياء وتساعد على حل المشكلات التي تعترضه"[3]. وبهذا يصبح الخير خطة يراد بها تخليص الإنسان من ورطة أو إنقاذه من موقف مغلق ،حيث ترتبط قواعد الأخلاق ومثلها بالمواقف التي تعالجها ، فالأخلاق ليست اجتماعية فقط في نظره حتى وان كان الفرد يتأثر ببيئته الاجتماعية إلا أنها تمثل عنده مسؤولية وانجازا فرديا ،"فالإنسان في بدايته نجد أنه يتأثر بأخلاق مجتمعه لكن سرعان ما نجد ه يشق طريقا خاصا به ويصبح سيد أخلاقه".[4] أي أن للفرد الحرية

الواسعة في اختيار ردود أفعاله بما أنه متميز عن غيره، وهو يدرك ما له وما عليه في ظل تواجده في مجتمع له قيمه وعليه أن ينسجم معها. فالأخلاق الاجتماعية تكسب الفرد ثقة بنفسه وهي مظهرا من مظاهر تفاعل الفرد بمحيطه اجتماعي .

فالحياة عنده هي توافق الفرد مع بيئته، والعقل هو أداة لترقية الحياة وليس وسيلة للمعرفة فقط، فالنشاط الفكري يقوى لما يواجه الفرد من مشكلة أو عائق إذ يفكر محاولا إزالته ومواجهته. فعلى الإنسان إحداث تغيير دائم في الحياة، فلا يجب التوقف عند الماضي في حين أن الحياة مستمرة دائما، وتوقعنا في مشاكل جديدة،،لهذا علينا مسايرتها حتى تستمر حياتنا الخاصة. وفي كتابه الديمقراطية، والتربية يعتبر التفكير هو أداة للسيطرة على البيئة، وهذه السيطرة تتم عن طريق أفعال، ما كان يمكن القيام بها لولا حل سابق، لموقف معقد إلى عناصر مؤكدة وإمكانيات مستقلة مصاحبة لذلك.وهنا يؤكد جون ديوي على دور التربية باعتبار أنها تتصل مباشرة بالحياة فالتربية ليست إلا استجابة لما يحدث في المجتمع فكيف يمكن أن تحقق التربية أبعاد اجتماعية؟

التربية والقيم الاجتماعية

التربية هي عملية تطبيع اجتماعي، ذلك أن المجتمع ينقل الوليد البشري من الطور البيولوجي إلى الطور السيكولوجي الاجتماعي، فالمجتمع هو الذي يصبغ الفرد بصباغته، فيحدد سلوكه والطرائق التي يجب العيش بها. ذلك أن كل النظام التربوي إلا ويرتبط بالنظم الاجتماعية الأخرى بعلاقة تأثير متبادل، فالمجتمع يمد النظام التربوي بمقومات وجوده أدائه لوظيفته، فالتربية تتضمن جميع صور الاتصالات المعرفية، «فالمجتمعهو الذي يصنع أو يشكل الأشخاص الطائشين والمتهورين وضيقي الأفق...كما يشكل الباحثين القادرين والنابغين وجهابذة العلم والفنانين المبدعين والجيران الطيبين الخيرين"[5] .

ولهنا نجد جون ديوي يري بضرورة "مراعاة الفرروقات ورغبات الأطفال حتى نستطيع تعليمهم وتربيتهم تربية لائقة"[6]. فهو يركز على دور المدرسة في تهيئة بيئة تتسم بالحيوية والواقعية حيث يمكنها أن تحدث تفاعلا بين التلميذ أو الفرد وبيئته وعن طريق هذا التفاعل يكتسب الخبرة للتعلم، بحيث يحرص ديوي على اهتمام بصفات التي تنمي للطفل القدرة على التفكير الحر والعمل بالذكاء في حل المشكلات التي تجابهه وفق نموذج الذي تقدمه الطريقة التجريبية حيث يقول "إن شرعت المدارس في تعليم على أساس هذه الطريقة لسهلت مهمة لبناء مجتمع مفتوح أي ديمقراطي [7]. وهنا يربط ديوي بين التربية والديمقراطية، حيث يرى إن كانت التربية ضرورية للحياة فكذلك الديمقراطية ضرورية للحياة الحديثة فهي تعتبر تحرير للعقل لكي يؤدي وظيفته، ولأن الديمقراطية مربوطة بحرية الآراء فبدون تفكير متحرر تكون مجرد فوضى، فالديمقراطية تحمل في طياتها احتراما متزايدا للفرد فهي تتضمن أكثر من مجرد شكل من نظام حكم فهي اسلوب من الحياة المشتركة ومن الخبرة المقترنة بالاتحاد والاشتراك والتفاهم المشترك فهي كفيلة بضمان وتكفل بتعليم وتربية كل أعضاء المجتمع لكي يمسكوا بزمام المبادرة الشخصية والتهيؤ والملائمة، لهذا دعا إلى أن يحرس المدرس في وضعه للبرامج دراسية على أن يوفق بين خبرات ومقتضيات المجتمع الديمقراطي لهذا يقول "الأطفال في المدارس ينبغي أن يسمح لهم بالحرية حتى يعلموا معناها، ومدى الفائدة التي يحصلون عليها حين يصبحون الهيئة الحاكمة المسيطرة، كما ينبغي أيضا أن يسمح لهم بتنمية الصفات الايجابية، صفات خلق والاستقلال وسعة الحيلة والدهاء قبل أن تتلاشى الديمقراطية[8]، وهنا رادف جون ديوي بين التربية والديمقراطية، كما جعل التربية نفسها عملية اجتماعية لان التربية عنده عملية حياتية بحيث تقوم على مبدأ الفعالية وربط المدرسة بالمجتمع وعلاقة الديمقراطية بالتربية.

القيم الأخلاقية في فكر جون ديوي

ففلسفة جون ديوي اتسمت بنزعتها التجريبية،المعادية للتجريدات الميتافيزيقية حيث وقفموقف المتشكك منالدراسات الميتافيزيقية، "فقد هاجم الفلسفات المطلقة التي تؤكد على وجود الغايات الثابتة المرتبطة بالعادات الجامدة."[9]

إذ يرى أنالأخلاق القديمة اتسمت بالثبات مما جعل الحياة الإنسانية سلبية لا امل فيها لتجديد أو تطوير. ويؤكد جون ديوي على ان تلك الاخلاقيات المتجاهلة للواقع الثري المضطرب المتغير لا تخرج عن كونها ضربا من الخيال "ولايهتم بها سوى إنسان يعيش في مجتمع لم يحقق تقدماأو تطورا." (10)

ولن يتسنى للاخلاق ان تقوم بدورها المنوط بها الا اذا تخلت عن القواعد والغايات الثابتة وتنهج بنفس المنهج الذي تنتهجه العلوم الطبيعية،حيث رفض ان يطبق المنهج التجريبي على جانب من الواقع دون جوانب أخربكالأخلاق، ذلك أن هذا قد يؤدي الى خلل واضطراب داخل المجتمع، بحيث انه لم يعد هناك مجال ذو قدسية خاصة، وأخر مادي دنئ ولم يعد هناك سوى قوة واحدة بيدها التقدم او التطور، وتجاوز الشر الموجود، "فتلك القوة بالطبع هي القوة الانسانية لذا فهو ينادي بضرورة ان تبدأالأخلاق من الواقع". (11)

وفي هذا يقول جون ديوي "انه ينبغي العودة بالاخلاق الى ميدان الواقع،فالامانة والعفة والخبث والتبرم والشجاعة والتفاهة والاجتهاد وعدم المسؤلية ليست من الممتلكات الذاتية للشخص، ولكنها نوع من التكييف بين قدرات الشخص ،وبين القوى البيئية المحيطة بهوجميع الفضائل والرذائل، ماهي إلا عادات تدخل في تكوينها القوى البيئية،وما هي ايضا إلا أنواع. من التفاعل بين عناصر يساهم بها العالم الخارجي من ناحية ثابتة ويمكن دراستها موضوعيا كما تدرس الوظائف الفسيولوجية ،ويمكن أيضا أن تغير منها العناصر الذاتية أو العناصر الاجتماعية "(12).

والأخلاق عند جون ديوي هي في الأساس اخلاق انسانية وليست اخلاقا متسامية تفرض على الإنسان فرضا،بحيث يرى أن موضوع الأخلاق هو سلوك الناس وعلى هذا يعرض نظريته الاخلاقية في كتابه "الطبيعة البشرية والسلوك الانساني"اذ يقوم بتحليل الطبيعة البشرية وفق ثلاث اسس وهي الدافع والعادة والذكاء فالدافع يتجلى في العامل الدينامي للكائن العضوي، أما العادة فتتمثل في الأنماط الثابتة نسبيا من النشاط والتي تتكون بفعل التفاعل الدائم بين الدافع داخل الكائن والضغوط الاجتماعية من خارجه، أما الذكاء فهو نوع من النشاط يعمل على اعادة الحالة الطبيعية للكائن كلما احبطت عاداته وتصدعت.

وعلى هذا فان التفكير هو السعي الأخلاقي الذي يقوم به الفيلسوف من اجل خير الانسان "والخير هو المعنى الذي يقع في خيراتنا ،وكأنه ينتمي إلى حالة من حالات النشاط حين ينتهي موقف تتشابك فيه دوافع وعادات متضاربة الى نهاية يخرج فيها كل هذا في صورة فعلى موحد ومنظم". (13)

إذ يقول " الأخلاق تعتمد على الاحداث لا على الاوامر والمثل العليا الغريبة على الطبيعة،ولكن على الذكاء يتناول الأحداث على انها متحركة وعلى انها مشحونة بالامكانيات لا على أنها نهائية ومتناهية،وعند التنبؤ بإمكانياتها ينبع التمييز بين الافضل والأسوأ او تتعاون الرغبة الانسانية، والقدرة الانسانية مع هذه القوة الطبيعية او تلك حسب هذه النتيجة او تلك التي حكمنا عليها بالأفضلية، فنحن لا نستخدم الحاضر للسيطرة على المستقبل ولكننا نستخدم التنبوء بالمستقبل لنذهب بالنشاط الحاضر وامتداده عند استخدامه للرغبة والمداولة الفكرية والاختيار". (14)

فالإنسان عند جون ديوي مخلوق له، قيمه ولا يظهر الا في المواقف التي تتصارع فيها رغباته او أخلاقياته وفي المواقف التي تكون فيها المشكلة تظهر ميوله الحقيقية ويبتدي الطريق الصحيح الذي عليه، ان يتبعه وهو لا يلجأ لمجموعة قيمه ليحل الإشكال، ولكنه يقوم الموقف ويقارن بين مختلف الطرق المتاحة، ويسمى ديوى عملية التقويم valuation ما يختاره من غايات ،وخيرات بعد تفكير وتمحيص وهي خيرات مرغوبة او معقولة، وهي اختباراتنا معقولة طالما أنها تعكس عاداتنا الفكرية المتطورة وتكون اختيارات منحرفة أو غير منطقية طالما انها تصدر على جهل وتقوم على الهوى.

لذا ينبغي ان يدرب الفرد على تصور أهداف جديدة ويسعى إليها، فطالما ان هناك حياة ستكون هناك مواقف جديدة دائما متفجرة عن صراع، وتتطلب قرارات وأحكاما وأفعالا وبهذا لا تكتمل الحياة الخلقية للإنسان، وتتحول الغايات إلى وسائل لبلوغ

أهداف جديدة، الا بظهور دور العقل، فدور العقل عند جون ديوي يظهر في تصور المستقبل وهو إسقاط لما يتمناه الفرد في الحاضر. لهذا فالفرد يسعى لاختراع الوسائل لتحقيقه، وبهذا يظهر الفهم للتقويم مثل بقية البحوث، يقوم على مفهوم اجتماعي ويفترض مجتمعا يشارك أفراده بالخبرات ولهم معاييرهم ووسائلهم المشتركة، ويلعب التقويم الذكي دوره في جعل هذا المجتمع واقعا مجسما، وهنا أيضا" يتم اختيار وتوضيح وتعديل المعايير والغايات في ضوء الخبرات المتراكمة للمجتمع"[15].

فدور الفكر يتمثل هنا في إعادة تكوين الحالة الراهنة للأشياء لا معرفتها، إذ يلعب دور الوساطة والأداة المستعملة لبلوغ النتائج المرجوة لهذا تصبح النظرية طريق ونهج لبلوغ النتائج.ان فلسفة ديوي تعبر عن نزعة طبيعية أخلاقية تستبعد كل ثنائية بين الواقعة والقيمة valeur او بين ما هو كائن وما ينبغي ان يكون، بحيث ترى "ان ما ينبغي ان يكون هو نفسه صورة من صور ما هو كائن".[16]

فالحاجة والرغبة منهما تنبثق من هدف الفرد ومنهما تصدر طاقته وتمضي الى ما وراء كل ما هو قائم بالفعل، فالغايات في نظر ديوي سوى أهداف يضعها المرء أمامه حتى يقوم بالتصويب نحوها، "فالمعايير التي تسمح لنا بتقييمها باطنة في صميم المواقف المختلفة التي يجد المرء نفسه إزائها."[17]

المهم أن يفطن المرء الى المجرى الصحيح للعمل، وأن يهتدي الى الخير الحقيقي الذي لا بد له من التماسه ،وليس للغايات او الخيرات الاخلاقية من وجود ،اللهم إلا حين يكون ثمة شيئ لا بد من عمله ،وبالتالي" فان الخير الذي يتطلبه الموقف لا بد أن يتخذ صورة كشف اخلاقي يكون علينا الاهتداء اليه في ضوء العيوب الحالية والنقائص الراهنة."[18]

وعلى هذا فان الحياة الاخلاقية في نظر ديوي انما هي صورة من صور البحث بما ان كل بحث يهدف الى احداث النظام، والتوازن، والانسجام بدلا من الفوضى، والاضطراب باعتبار ان البحث ذو طابع أخلاقي، وهو أساس لكل تقدم إنساني.

فالبحث هو المصدر الخصب للنمو البشري، ولتجدد المستمر للقيم. اذ يعلي جون ديوي من شأن العقل والمعرفة والتواصل الفكري، فيقول" إن معظم القيم الاخلاقية والميتافيزيقية والدينية التي دخلت في تكوين تراث الانسان الحديث، انما هي في اصلها قيم انحدرت من العلم، والبحث والذكاء، وكان دور البحث هو اضفاء النظام والاتساق على الخبرات التي كانت في الأصل متصارعة متنافرة" [19].

لقد تناول ديوي دراسة الوسط الطبيعي الذي يتطور في كنفه الإنسان وهو الوسط الاجتماعي ،ذلك أن السلوك الأخلاقي هو نابع من التفاعل الذي يتم بين الانسان وبيئته. فتحقيق الخير او الاصلاح لا يكون الا بامتزاج بين القوى الداخلية للانسان والخارجية، فإذا حدث تغيير لما هو في داخل الفرد ترتب على ذلك تغييرا في المجتمع أ والبيئة. لأن ما يحدث للفرد إلا وينعكس على المجتمع وهذا للإرتباط القوى بينهما.

لقد أراد جون ديوى دراسة سلوك الفرد من خلال استجابات الانسان ومشاعره بوصفه فردا ملتزما منخرطا في مواقف عدة، وباعتباره كائن اجتماعيا يحيا في احتكاك مستمر مع الاخرين اي" دراسة علاقات التأثر والتأثير المتبادلة بين الأفراد." [20]

فالقيم والغايات التي بمقتضاها يعمل الإنسان فإما ان تكون جزء لا يتجزأ من طبيعة العالم الخارجي نفسه "من خلق الإنسان يخلقها لتكون له وسائل يوائم بها بين نفسه وبين العالم الطبيعي او المجتمع الذي يعيش فيه."[21]

وعلى هذا فالقيم ليست سابقا على الوجود الإنساني (المجتمع)، بل تنشأ نتيجة لازمة لكفاح الإنسان واتصاله ببيئته ومحيطه، اتصالا يظهر فيه الكفاح واختيار الإنسان لأسلوب معالجة للمواقف الجزئية التي تعترضه في حياته.

فالقيمة هي كل ماله سلطة في توجيه السلوك ،وعلى هذا فالأخلاق لها صلة بجميع انواع الفاعليات التي تدخل فيها امكانية الاختيار بين أمرين او اكثر. لانه اذا ما ظهرت هذه الإمكانية فلا بد أن يكون هناك فرق بين ما هو افضل وما هو أسوء، "ويعني التفكير في العمل افتقاد اليقين مما يتبع الحاجة الى تقدير المسالك وتقويمها على أساس ما فيها من تفاضل"[22].

ولا يكتسب الطابع الأخلاقي المميز الا بالعمل القصدي (الإداري) أي السلوك الذي يتضمنه الاختيار بناء على التأمل والتفكير حيث تبرز مشكلة الافضل والأسوأ والاعتراف بان السلوك الخلقي يستوعب كل عمل نحكم عليه على أساس الأفضل والأسوأ، "والتسليم بان الحاجة الى هذا الحكم يمتد في الزمان والمكان امتداد كافة جوانب السلوك، يجنبنا الوقوع في خطأ فلا يمكن عزل الاخلاق واعتبارها ميدان منفصل على ميادين الحياة"[23].

لذلك ينتقد ديوى تصور النظريات السابقة للأخلاق لأنها تقوم بوجه عام، على قواعد تحكيمها أولى من ان تقوم على فهم علمي للإنسان. ذلك "أنها في مجموعها تدفع إلى التقييد والتحريم مقصورة على ما ينبغي تجنبه دون ان تهتم بما ينبغي فعله".[24] فهو يطالب بالاستفادة من تطبيق المنهج التجريبي على الاخلاق حتى تصبح الاخلاق متغيرة، وتصبح أحكامها نسبية،وتبتعد عن الجمود والاحكام المطلقة.

فالبحث في الغايات الثابتة بالنسبة لجون ديوي بمثابتة "هروب الانسان من الواقع المادي الملموس نتيجة لعدم قدرته على تحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه في محاولة التغلب على الشر ومحاربته يلجأ الفرد إلى العالم المثالي لا وجود فيه للشرور التي تحاصره من كل صوب في عالمه المادي المنحط الدنيئ ،لكن في الواقع يستمر النقص والشر الذي لايكون في مقدورنا القضاء عليه بشكل تام بل محاولة التغلب عليه قدر استطاعتنا حتى نتمكن من تحقيق الخير في عالمنا الواقع ،فبدلا من تشجيع المجهود لإحداث تغير مادي لما هو موجود يتكون نوع اخر من الوجود يوجد في مكان ما يكون بمثابة ملجأ أو مأوى من المجهود، "وهكذا تضيع الطاقة التي كانت ستنفق في القضاء على أمراض الحاضر في طيران متأرجح من عالم بعيد كامل".[25]

وينظر جون ديوي الى الشر من زاوية موضوعية، وهذا بتناوله من خلال الواقع الملموس، ومحاولة القضاء عليه حيث يقول "ان مشكلة الشر لاترجع الى كونها مشكلةلاهوتية ولامشكلة ميتافيزيقية بل إنها مشكلة عملية، وهي مشكلة العمل على تقليل شرور الحياة بقدر الإمكان"[26]. فضروب الخير وأهدافه لا توجد الا عندما يكون ثمة عمل ينبغي أن يؤدي، وهذا دليل على وجود نقص ما، أو شر على الموقف الحاضر يجب معالجته، وهذا الشر ليس سوى شر نوعي خاص بموقف دون غيره، فهو لايكون أبدا نسخة مطابقة لشيء أخر، كذلك "الخير لا يكرر مرتين فهو الجديد كل صباح، الطازج كل مساء وهو الفريد في كل تعبير فهو يتكشف نتيجة التعقيد الذي يميز العادات والدوافع المتعارضة التي لا يمكن ان تتكرر قط"[27]. فالأخلاق ليست ثبتاcatalogue بالأفعال وليست قائمة بالقواعد التي لابد من تطبيقها مثلما نطبق الوصفات الطبية او طرق الطهي، فحاجتنا إلى الأخلاق إنما هي حاجة إلى مناهج نوعية للبحث والاستنباط تلك المناهج التي تؤدي إلى تحديد مواطن الصعاب التي نواجهها والمساوئ والشرور التي تعترضنا"، وهي طرق تيسر لنا وضع الخطط التي نستخدمها بادئ الأمر كنظريات او فروض للعمل على معالجة هذه الصعاب وتلك المساوئ والشرور."[28]

"فعندما يزول عن علم الأخلاق تشدده المسرف، وطابع الوعظى، ويتخلص من هزاله وغموضه ويكتسب فعالية، بل ان هذا الكسب لايقتصر على علم الاخلاق فحسب بل يتعداه الى العلم الطبيعي الذي سوف يكف بدوره عن انفصاله عن الإنسانية ليصبح علما إنسانيا يزودنا بالطرق والمناهج الفنية التي تقتضيها الهندسة الاجتماعية الأخلاقية فمتى تشبع الوعي العلمي بالوعي بالقيمة الإنسانية ،و انهارت اكبر ثنائية ترهق الإنسانية وهي الانشقاق القائم بين المادية الألية العلمية والمثالية الأخلاقية".[29]

لهذا يؤكد جون ديوي على أن الاستفادة من المنهج العلمي لا يجب أن تكون على جانب من الواقع دون جوانب أخرى كالأخلاق، فهذا سيؤدي إلى خلل واضطراب في المجتمع، كما اعتبر ان الأخلاق إنسانية أي قريبة من الطبيعة البشرية، إلا انه رفض ان تكون أخلاق فردية بل هي اجتماعية، لان الحكم الخلقي والمسؤولية الخلقية هي حصاد البيئة داخل نفوسها والمجتمع بمثابة محكمة داخلية.

ويجب أن نضع في حسابنا نتائج أفعالنا وتأثيرها على مصالح الآخرين، وعلى هذا فهو يرفض مذهب المنفعة ويؤكد على مهمة التروى والتبصر في تقدير مسالك العمل، لان ما يدفعنا للعمل ليس الربح والخسارة، وإنما القضاء على التعقيدات القائمة حتى نستطيع ان نواصل ونحدث انسجام مع البيئة، والعمل هو قائم على الحرية والتي تقوم في جوهرها على المسؤولية.

فلسفة ديوي في القيمة ترتبط بتصوره للمسؤولية الخلقية والحرية، وقدرة الفرد وتصب على قدرة المجتمع على النمو أي مقياس الخير ومعاييره والنمو عنده هو الاتصال، التغيير والاستمرار اي يعني تحقيق ممكنات جديدة تنشأ على الخبرة.[30]

وعلى هذا فالقيمة ليس لها وجودا منعزلا مستقلا عن الواقع بل هي وسيلة وأداة لتنظيم جديد للموجود واعادة تشكيل له، والتجربة أوالخبرة الواعية للإنسان هي المقياس الوحيد للوجود المادي او التقويم.

ويؤكد ديوى على إن الأخلاق الحقيقية هي "الأخلاق التي تتم عن طريق القصد وترتبط بكل ميادين الحياة، حيث تتميز بنظرتها الواقعية والقدرة الفرد على التعامل مع المشاكل الحقيقية المرتبطة بالواقع دون أن تتجاوزه"[31].

فالقيم دينية كانت أو أخلاقية في التصور البراغماتي تقبل لا على أساس صحتها المنطقية، وإنما على أساس فائدتها العملية في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الناس، ومالها من اثر طيب في حياة الأفراد وهذا لان المنفعة العملية هي مقياس الحق من الباطل ... والصدق مرادف للمنفعة العملية والتفكير الصادق هو النافع عمليا والخير والحق كذلك كل ما يحقق نفعا للناس ويعمل على إشباع رغباتهم وحاجاتهم[32].

فالأخلاق عند ديوي تكون بمعرفة الآثار التي تترتب عن سلوكاتنا بمعرفة مدى صحة المبدأ الخلقي، في حل المشاكل القائمة والمساهمة في النمو، وهذا هو معيار الحقائق ومقياس القيم جميعا.

الهوامش

1.إبراهيم مصطفى إبراهيم – نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء الدنيا والطباعة والنشر الإسكندرية ط201،1ص157

2.ابراهيم مصطفى ابراهيم –المرجع نفسه ص 159.

3.توفيق الطويل ،.فلسفة الخلقية نشاتها وتطورها دار النهضة العربية القاهرةط3 ،1967ص277.

4.جون ديوي ،المبادئ الاخلاقية،ج^2 ،مطبعة الجامعة السورية ،دمشق 1959،د ط ص 60

5.جون ديوي ،،قاموس جون يدوي للتربية(مختارات من مؤلفاته)تر محمد علي العريان، نص عبد العزيز سلامة ،مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة د،ط، 1964 ص 188

6.جون ديوي، قاموس جون ديوي للتربية، ص133

7.جون ديوي" المدرسة والمجتمع ،"تر أحمد حسن الرحيم، محمد ناصر نص محمد حسين آل ياسين منشورات دار المكتبة الحياة بيروت لبنان دط د س ص 256

8.محمد جديدي، فلسفة الخبرة جون ديوي انموذجا،المؤسسة الجامعية الدراسات والنشر والتوزيع بيروت لبنان ط1ا، 2004 ص 258

9.محمد عبد الحفيظ –الفلسفة والنزعة الإنسانية (الفكر البرجماتي نموذجا)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الإسكندرية ط1. 2006ص236.

10.ابراهيم مصطفى إبراهيم ،المرجع السابق، ص87.

11.محمد عبد الحفيظ ،المرجع السابق ص235.

12.جون ديوي –الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، ترجمة محمد لبيب النجيحي مؤسسة الحنابجي القاهرة (د.ط) 1963ص41.

13.زكي نجيب محمود والاخرون ،الموسوعة الفلسفية المختصرة –دار القلم بيروت (د.ط) د س ص204
14.جون ديوي المصدر السابق ص325-326.
15.عبد المنعم الحفني –الموسوعة الفلسفية –دار المعارف للطباعة والنشر –سوسة تونس (دط) 1992 ص 201.
16.زكريا ابراهيم –دراسات الفلسفية المعاصرة –دار مصر للطباعة –مصر د ط .د س ص72.
17.المرجع نفسه ،ص73.
18.المرجع نفسه ،ص 73.
19.المرجع نفسه، ص 74.
20.المرجع نفسه ،ص73.
21.هاني محمد رشاد بخيت-البرجماتية الأمريكية المعاصرة (أصولها يونانية) المكتبة المصرية للطباعة والنشر الاسكندرية د ط،2006ص83.
22.صلاح قنصوة –نظرية القيم في الفكر المعاصر-دار التنوير للطباعة والنشر بيروت ط2 1984 ص140
23.المرجع نفسه ،ص25.
24.عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية ،ج1 المؤسسة العربية للدراسات بيروت ط11984ص501.
25.جون ديوي -الطبيعة البشرية والسلوك الانساني ص275-276.
26.محمد عبد الحفيظ –المرجع السابق ،ص 240.
27.صلاح قنصون –المرجع السابق، ص 142.
28.صلاح قنصوة –المرجع السابق ،ص142-143.
29.صلاح قنصوة المرجع السابق، ص147.
30.صلاح قنصوة المرجع السابق، ص147.
31.محمد عبد الحفيظ المرجع السابق ،ص 238.
32.محمد عبد الشرقاوي ،مدخل نقدي لدراسة الفلسفة،دار الجيل بيروت ط2 ،1990ص174.